هل في العربية الفصيحة تنغيم؟

أ.د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان(*)

بات الدرس اللغوي العربي يذكر مصطلحات جديدة على أنها جزء من مادته و منهاجه. و إن تسامح الناس في الاصطلاح فإن لذلك ضوابط و أصولا يرجع إليها الباحث تجنبا للفوضى في تعدد ألفاظ المصطلح و تناقض المعنى بها [1]. و هو ما حرَص عليه العلماء في وضع المعجمات لكل علم من العلوم و المهن الفنية، بل اهتمامهم بتوحيد المصطلح العلمي، و ضبط استعماله،و إشاعته في شتى المرافق و المؤسسات.

و لذا فإن بين أيدي المثقفين و العلماء و طلاب العلم في مجال اللغة و بعض علومها عدة مصطلحات، بعضها جديد مستعار، لكل علم من علوم اللغة، والأصوات، والنحو و الصرف و البلاغة و الأساليب و الأدب والنقد. و إذا كان هذا شيئا بديهيا، ونتيجة من نتائج التطور التي شهدتها اللغة العربية و علومها بعد مضي أكثر من نصف قرن على صلة هذه الأمة بغيرها من الأمم الأخرى و لا سيما في مجال التعليم و الدراسة و الثقافة فلا بد للمعنيين أفرادا ومؤسسات من أن يجعلوا لذلك ضوابط و أصولا تحكم كل علم،توضح مادته،و ترسم منهاجه، و تحصر مصطلحه ، طلبا لدقة العلم و البحث و تحقيقا للنتائج المرجوة، ووصولا إلى الغاية و الغرض من كل ذلك.

و من تلك المصطلحات "التنغيم" بمفهومه و تعريفه في مثل اللغة الإنجليزية و الألمانية من حيث هو أصل من أصول الفهم و الإفهام عند المتكلمين بهاتين اللغتين، والكشف عن المراد بهذه العبارة أو تلك، و موافقته لما استقر في مثل هاتين اللغتين من سمات الكلام و استعمالهما، و هو ما سوف نرى أمثلة منه في موضعه من هذا البحث.

ثم إن أحد هؤلاء الباحثين المعدودين في الدرس اللغوي المعاصر يذكر هذا المصطلح كيف هو ماهية و استعمالا و مفهوما و غرضا، و يرصده في اللغة العامية المصرية، و يوضح كيف ينتفع به في التفريق بين المعاني، و ينص على اختلاف المراد في العبارة الواحدة. ثم يُنص نتيجة لبحثه في هذا المصطلح قوله[2]:" و كم يكون جميلا أن يهتم به دارسو الأدب و رجال النقد الأدبي، إذ هم بذلك يستطيعون الحكم على المعاني حكما صادقا، و من الواجب علينا أيضا أن نراعيه في تلاوة كتاب الله الكريم فنحن إن فعلنا ذلك سهل علينا فهمه و تذوق معانيه".

و معنى كلامه أن هذه الظاهرة اللغوية لم يكن أهل اللغة العربية و علماء النحو يدرسونها بين الظواهر اللغوية الأخرى. و معناه أيضا أن كل ما تم درسه من نصوص اللغة منذ بدأ الدرس اللغوي و علوم العربية أي منذ القرن الأول للهجرة الشريفة حتى زمن الباحث المذكور لم ينتفع بهذه الظاهرة، بل إن فهم النص العزيز من كل وجه مشافهة و كتابة منذ ذلك العهد البعيد غير واف، و مقصّر عن بلوغ الغاية التي لا تتوافر إلا بتطبيق هذه الظاهرة و الأخذ بأحكامها في دراسة النص.أليس هذا

(*) من المملكة الأردنية الهاشمية / عمان

مراد الباحث الكريم، أو أليس هذا هو المفهوم من نصه. ويلزم عن هذه النتيجة أو الفهم الذي يفيده النص كلام كثير يحوج إلى نقاش و خلاف، غير أني أحسب أن في عرض بعض ما يهم من التنغيم في مثل اللغة الإنجليزية مصطلحا و مفهوما و استعمالا في كلام المتحدثين بها ما يكشف عن حقيقة الأمر من حيث قيمة الظاهرة ووظيفتها في الكلام.

فالتنغيم في الإنجليزية صوت المتكلم على مختلف درجاته بحسب أصناف الجمل و التراكيب فيها، يكتسبه المتحدث بها طفلا إذا كان من أهلها،و يتصف صوته بالارتفاع و الانخفاض ، لغرض التعبير عن عدة تأثيرات ذات معان مرادة.

و هذا ما تفيده تعريفات هذه الظاهرة من نحو: القصد إلى معرفة درجة أنواع الكلام بالإنجليزية نغمة موسيقية[3] أو موسيقى اللغة بطريقة ارتفاع الصوت و انخفاضه عند التكلم أو درجة الصوت التي تمثل الجزء المهم فيه[4] و هي الموضحة في خصائص هذه الظاهرة من حيث المعنى المراد و تعيين الأغراض النحوية و المواقف النفسية و العاطفية في الكلام[5].

و يرجع التنغيم في الإنجليزية إلى صنفين من اللحن بحسب الكلام المؤكد و غير المؤكد. وهو في كل صنف درجات من الارتفاع و الانخفاض. و يبلغ عشرة أنواع في كل صنف منهما. و هو أكثر وضوحا في أسلوب السؤال و التعجب و الإنكار و الأمر. و أهل اللغة في جملتهم لا تشتبه عليهم إفادته مسموعا و مقروءا، لأن الصوت به في الكلام يحدث في موضع من السياق ليفيد المراد معنى و إفهاما بحسب أصناف الجمل و تأليفها.

فالتنغيم صوت مميز،يحدثه المتكلم في موضع من الكلام أولا أو آخرا أو في أثناء الكلام. فيكون الصوت منخفضا بعد ارتفاع أو العكس أو منخفضا أو مرتفعا. و تتفاوت درجة كل نوع تبعا للجملة و مضمونها،و تبعا لمراد المتكلم من كلامه،و تبعا للحال النفسية التي هو فيها أو التي يريد من مستمعه أن يكون عليها.

و يرتفع التنغيم بدءا بأول الكلام لعدة أغراض: تمام المعنى،و الانطباع بالمشاركة في أمر،و هو مسموع لخفته في الكلام اليومي في نحو السؤال:كم الوقت،أو في الإجابة :نعم، ممتاز،أصدّق هذا بصعوبة. أو في الأوامر التي يشعر معها صاحبها بالقلق إزاء إجابة السامع أو إهماله نحو:هذا الشاي ساخن جدا،أو ضع مزيداً الحليب فيه. أو في التعجب نحو: يا للسماء أنا متأخر.

و يرجع التنغيم في الإنجليزية إلى قوانين [6] تحكمه، ويلزمها المتكلم من نحو تقسيم الجمل الطويلة إلى وحدات، وإرادة أغراض نحوية، وتوضيح موقفه ساعة تحدثه، وتقديم معلومات مهمة.

ولذا فإن استعمال نغمة صوت من لغة أخرى أثناء الحديث يسبب خطأ في المراد، ويوقع في الإشكال [7] وهذا يقطع بأن لكل لغة سمة ينتفع المتكلمون بها ولا تصلح للغة أخرى.

وأغلب مَنْ تحدث عن التنغيم في الدرس اللغوي الحديث من العرب لم يخالف في وصفه ولا مناقشته ولا تقريره ولا نتائجه. وهو ما يجده القارئ في ما كتب بالإنجليزية دون أي تباين [8]. ويحاول بعض الباحثين أن ينص على وجود هذه الظاهرة في فصيحة العربية، ويضرب لذلك مثلا من النص العزيز، بالرغم من أن بعض الدارسين للظاهرة يقطع بعدم وجودها على نحو ما هي عليه في الإنجليزية إلا من بعض الإشارة إلى ما يشبه ذلك. فأبو علي الفارسي مثلا يذكر أن الصوت في بعض الحروف أزيد منه في بعض،لكنه ينفي أن يكون ذلك سببا

کتابخانه ومرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

في اختلاف الحرفين[9].

وفي كلام الأستاذ رمضان عبد التواب إحاطة بهذه الظاهرة وغيرها من عدة أوجه تاريخية ووصفية. فهو يذكر النبر من حيث وجوده في العربية القديمة وصفته في اللفظ، فينص على اختلاف العلماء، ويورد رأيا لبراجشتراسر ينفي فيه وجود النبر، ويصف بعض ما كانت عليه الفصيحة القديمة، لكنه يقرر أنه في اللهجات العربية الدارجة على تفاوت في درجة النبر أو الضغط. ويذكر رأي الأستاذ إبراهيم أنيس الذي يفيد فقدان الدليل على موضع النبر في الفصيحة القديمة إلا ما لا حظه مثل ابن جنّي كما سيأتي الكلام على مثله في موضعه. وأما براجشتراسر في حديثه عن التطور النحوي فإنه يخلص إلى ما ذكر الأستاذ رمضان من فقدان ما يدل على وجود هذه الظاهرة في الفصيحة، وإن نص على أن لكل لغة نغمة خاصة بها.

وهو يذكر أن اللغات متفاوتة في هذه الظاهرة. فهي واضحة في مثل الصينية وبعض اللهجات الألمانية، على حين أن الفرنسية اكتفت من الظاهرة بتتابع المقاطع فيها على سَوِيّة. وبعض اللغات الأخرى أضافت إلى التنغيم بعض ما يميز المقاطع قوة وضعفاً [10] وفي ذكره للضغط في العربية الفصيحة يقرر أنه نادر لكنه موجود في لهجات العربية الدارجة على اختلاف في ما بينها من حيث موضعه من الكلمة [11]. وينفي الأستاذ رمضان أن يكون القدماء تناولوا ظاهرة التنغيم أو عرفوا كنهه إلا بعض إشارات نادرة [12].

غير أن في كلام المرحوم مصطفى صادق الرافعي نصاً على هذا الجانب من حيث وصفه مادة الصوت اللغوي بأنها مظهر الانفعال النفسي، ومرجعه إلى تنويع الصوت، فيختلف في المسموع قوة أو ضعفاً أو بين بين بحسب الظواهر المذكورة في علم أصوات العربي، على مقادير تتناسب وما في النفس من أصولها، فيحدث من ذلك "بلاغة الصوت في لغة الموسيقى"[13] ويؤكد ذلك بأن جعل الكلام في تكوّنه وخروجه في أصوات مثل تصرف الحواس في إدراكه ودرجاته، وهو ما يشبه تصرّف النظر في إدراك الجمال وأسراره، أو السمع في تبين الصوت وحسن نغماته، ومرجعه تصرّف الحواس في كمالها العصبي، ويصف ذلك بأنه الكلام النفسي الذي يضيف إلى صفة المتكلم صفة البلاغة [14].

وبحثُ هذا الجانب في العربية أو في غيرها على تفاوت بين اللغات إنما يبدأ بأصوات حروفها مخارج وصفات. فلا بد أن يستوفي المتكلم أدنى حظ في مراعاة إخراج الحروف من مواضعها، فلا يقع الاشتراك بين حرفين أو أكثر مخرجها واحد أو قريبا المخرج كمثل اللام والراء والدال والتاء والضاد والظاء والذال والتاء والفاء والصاد والسين،وهو ما وقع ويقع فيه الاختلاف والتداخل. وكذلك أدنى قدر من مراعاة صفة الحرف أو أكثر، فلا يتبين الحرف من الآخر، ويستوي أو يقترب الحرفان أو الأحرف بتداخل الصفة أو فقدانها، كالإطباق والاستفال والتفخيم والترقيق والتفشي والجهر والشدة والقلقلة نحو: القاف والطاء والظاء والضاد واللام والراء والفاء والشين والجيم والدال والباء [15]. بيد أن هذا بنحو عام من شأن كل لغة، تجري مراعاته بحسب حاجة الناس إليه في مرافق حياتهم، وبحسب ثقافة كل طبقة منهم. وبالرغم من ذلك فلا تعد مراعاة أصوات اللغة على هذا النحو من قبيل المصطلح المذكور، لأن فقدان تلك المراعاة في حدها الأدنى تهدر اللغة واستعمالها وسيلة للاتصال بين المتكلمين بها. فإذا توافرت العناية واشتدت المراعاة، ولا سيما في تلاوة النص العزيز اقتدر القارئ أن

يتقن اللفظ بأصوات اللغة من مخارجها، ويعطيها صفاتها، أمكن أن يوصف ذلك بأن المسموع مستوف للمطلوب أو قريبٌ منه في تلاوة كتاب الله تعالى، مما جاء النص عليه في نفس الكتاب الكريم [16]. وهذا ما يفصح عنه اللفظ في بنية معينة في سياق الكلام، نحو كلمة (ضيزى) في قوله عز وجل [17]: "ألَكُم الذَكَرُ ولهُ الأنثى. تلك إذاً قِسمةٌ ضِيْزَى". وقد ذكر المرحوم الرافعي أنها كلمة غريبة اللفظ، تلائم غرابة قسمة المشركين، وتعرب عن استنكارهم لها [18] يريد كلمة (ضيزى) ومثله قوله تعالى [19] : "فلمّا جاءَ السَحَرَةُ قالوا لفرعَونَ أئِنَ لنا لأجْراً إنْ كُنّا نحنُ الغالبين" وقوله سبحانه [20]:"الآن وَقَد عَصَيتَ قَبلُ وكنت من المُفسِدين".

ومنه ما سُمّي واوَ الإنكار نحو:آلرَجلوه،بعد قول القائل:قام الرجل. وقد ردّها ابن هشام بكونها إشباعاً [21] وذكر ابن جنّي خبراً هو أن أحد العرب [22] " قيل له: أتخرجُ إلى البادية إن أخصبَتْ ؟ فقال: أنا إنِيَه" فجاء بـــ (إن) موصولة بياء وهاء السكت للدلالة على الإنكار.

ويقتصر هذا الجانب على صيغة الكلمة أو مجموع جذورها وغرابتها أو استيفاء حق صوت الحرف مخرجاً وصفة دون أن يفيد لفظاً أو معنى زائداً على ما في اللفظ وائتلاف العبارة[23] فقد نص ابن الجزري أن كل حرف شارك سواه في الصفات لا بد له من أن يمتاز عنه في المخرج نحو اشتراك الغين والخاء في المخرج وفي الرخاوة والاستعلاء والانفتاح صفات، وامتازت الغين بالجهر. واشتركت الطاء والدال والتاء في المخرج وفي الصفات شدة، وامتازت الطاء بصفة الإطباق والاستعلاء ، واشتركت مع الدال في الجهر صفة، وامتازت التاء بصفة الهمس واشتركت مع الدال في الانفتاح والاستفال [24]. وهذا الجانب من اللغة يُعدّ أصل كثير من الظواهر اللغوية الأخرى التي رصدها علماء اللغة والقراءات والتجويد. فالمَدُّ والقَصْر والإدغام والإظهار والإخفاء والتَرقيق والتَفخيم والرَوْمُ والإشمام والوَقف والابتداء والإمالة والاختلاس والمَطْل والإعلال والإبدال إنما مرجعه إلى أمر مَخارج حروف هذه اللغة وصفاتها.

وتوشك أحرف العلة، أن تكون أكثر حظاً من هذه الظواهر وعلومها فالمَدُّ مثلاً من خواص أحرف العلة. وقد جاء في تعريفه أنه زيادة في مَطِّ هذه الأحرف على مَدِّها الذي لا يقوم الحرف منها بغيره. ويكون لسبب في لفظ الكلمة وصيغتها من ساكن ومُشدَّد وصنف من الأحرف نحو: آدم أُوتي، أ أنذرتَهم، المِهاد، يا أيُها، الضالّون، دُعائي، إي وربّي ، النَبيّون. وهو ما تقصد إليه العرب تحقيقاً للمُبالغة . وإن كان هذا السبب أضعف من سابقه. ومنه مَدُّ التعظيم في قوله تعالى: " لا إله إلاّ الله " و " لا إله إلا هو" و "لا إله إلاّ أنتَ"، وهو مَدّ عُرف عند العرب ففي النداء والاستغاثة. ويكون المدّ بالمتابعة، والنقل في الرواية والاقتداء نحو ما نصَّ عليه ابن الجَزَري من حديثه أن رجلاً قرأ على ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قوله عزّ وجلّ: " إنّما الصَدَقاتُ للفُقراء والمَساكين "مُرْسلَة . فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فقال أقرأكَها يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: أقرأنيها "إنما الصَدقاتُ للفقراء والمساكين " فَمُدّوها [25].

وهو عين ما ذكره ابن جني في نحو:جال، وعيد، وهيم، وكور، ويوم، وعماد، وجميل، وقبول. فهذه الحروف الألف والياء والواو، يطول اللفظ بها، وتتمكن مدتها، إذا كانت ساكنة والحركة قبلها من جنسها، ووَلِيَها همزة نحو: سماء، نداء، وهنيئة ، دفيئة، ومشنوء ، مخبوء. أو وَليها مُضعّف نحو، شابّه، دابّة، قُوصّ بَه، تُمودّ ثَوبُه. أو أريد تَذكُّر المفعول أو شبه الجملة نحو: مَضيا في

قولك : ضيفاك مَضيا إلى المدينة أو لقيا حسناً.وسألوا في : سألوا عنك أو سألوا أهلك. وأجْملي في: أجملي في الكلام أو أجملي اللقاء. ومَطلُها في التذكُّر يفيد أن المتكلم بما يتذكر شيئاً والأخذ بإطالة الصَوت بهذه الحروف يجعلها واضحة مع صوت الهمزة والمضعّف والساكن[26].

وتُمَدّ الألفُ في جملة النُدبة نحو: واقدساه ، وافلسطيناه أو يا قدساه، يا فلسطيناه، فالمَد في الألف حرف الندبة، والألف الأخيرة زيادة في معنى الندبة وتُستعمَل للتعجب نحو قول راجز من بني تَميم:

وابأبي أنت وفوك الأشنب
كأنّما ذُرَّ عليه الزَرنبُ
أو زنجبيلٌ وهو عندي أطيبُ

وتلحقها(ها) كما في قول رُؤبة بن العَجّاج:

واهاً لِسلمى ثُمّ واهاً واها
هيّ المُنَى لو أنّنا نلْناها

ويجري التعجب بنحو:لِلّه درّه، ويا لَك صَديقاً،و وَيلَمِّه رجُلاً، وقاتلَه اللهُ من شاعر، ولا شُلّ عشرُه [27].

والوقف على المندوب يَذهب بصوتها ، فأُلحقت بها هاء حرصاً على صوتها، هي هاء السكت. فإذا وصل الكلام بالنَدْب سقطت الهاء. وتلحق هذه الهاء حرف العلة المتحرك بالفتحة لإظهارها نحو قوله تعالى : "وأمّا مَنْ أوتِيَ كِتابَه بشِماله فيقولُ يا لَيتَني لم أوت كتابيَه. ولم أدرِ ما حِسابيَه. يا لَيتَها كانَت القاضية. ما أغنى عنّي ما لِيَه. هلكَ عنّي سُلطانيَه" وقوله عزّ وجلّ: "فانظرْ إلى طعامِك وشَرابك لم يَتَسنَّه " [28].

ومثل ذلك الواو والياء نحو" واذهاب أياميَه، واجاركَيه ، واغلا مَكُموه، واغلا مَهموه وكذلك الاستغاثة بإطالة صوت حرف الألف في نحو: يا لَلرجال للأيتام، يا للأمانة.

ومما تدل عليه حال المتكلم في نطقه لهذه الأحرف نحو قولهم: سير عليه طويلُ، يريدون ليل طويل. وقول القائل يمدح آخر: كان والله رجُلاً، بزيادة قوة اللفظ في اسم الجلالة. وقوله: سألناه فوجدناه إنساناً، بتَمْكين الصوت بإنسان وتَفخيمه، فيُستغنَى بذلك عن الوصف. وكذلك في الذم نحو قولك: إنساناً لئيماً أو لَحزا مُبخّلا، وأنت تعبس وتُقطّب وجهك[29]وتوضيح ذلك في بعض عامّيّات اللغة العربية عند السؤال أو التَعجُّب أو الخبر الذي يحمل إثارة، كل ذلك في صوت المتكلم بألفاظه نحو سؤاله مُتعجباً: وين رايح. أو استخفائه بأمر:هذا هو ! أو إخباره بما يُهِم:الرجل الذي دعونا موقوف. أو تأكيده: والله. حقيقة. وبعض اللهجات تختلف عن بعض في كثير منه.

وتُمدّ الحركة في حال التذكُّر حتى تَفي الحرف صوتاً نحو: جئتا، والمراد: جئت ، لمفرد المخاطب. المخاطبة تصبح ياء. وضمة إذا كانت للمتكلم : قمتو. وكذلك مطل الحركة على الحرف الساكن بعد تحريكه بالكسر نحو: قدي، في: قد قام، ومني وهلي ونعمي في: من، وهل، ونعم. وتحريك هذا الساكن بالكسر إجراء له مجرى حركة التقاء الساكنين، ولمن لغته الضم أو الفتح، لالتقاء الساكنين أن يضم أو يفتح [30].

وأرادت العرب أن تبيّن الحركة كيف كانت على آخر الكلمة إذا وقفت عليها نحو: نحمدُ ، حيثُ، بعدُ، زيدُ، فتأتي ببعض حركة الرفع إعرابا أو حركة الضم بناء، ونحو: من بيت، ليهدِ، وحينئذ، عليه، فتأتي ببعض الكسرة إعرابا وبناء، ونحو: زيد، في زيد الخير، وبدأ، عند، فتأتي ببعض الفتحة إعرابا وبناء. وهو ما يُسمى بالرَوْم، أي طلبُ الشيء. وهذا الجزء من الحركة يُسمع وقفاً.

وتأتي بحركة الضم وقفاً وبناءً صورة، وذلك بضَمّ الشَفتين إذا وقفت على نحو: نعبدُ، زيدُ، حيثُ، قبلُ، وهو مالا يُسمَع، ولا يَراه الأعمى. وهو ما يُسمَّى بالإشمام[31].

ومن تخفيف الحركة بلَفظها ضعيفة. وهو ما يُسمَّى بالاختلاس والإخفاء. وهو ما ذهبت إليه العرب من تَوالي الحركات في نحو قولهم: أراك مُنْتفْخا، بإسكان الفاء، ونحو قول العجّاج:

وبات مُنْتصْبا وما تكرْدسا.

فأسكن الصاد. والإتيان بالحركة في ذلك شيئاً قليلاً هو الاختلاس والإخفاء. ومنه قراءة أبي عمرو في رواية عنه نحو: يَنصرُكم، يأمرُهم، يشعرُكم، بارئكم [32] ببعض حركة الراء في هذا كله من ضَمٍّ وكَسْر [33].

وحرفا الراء واللام متقاربان مخرجاً. إذا وقعا في الكلمة، وقبلَهما نوعٌ من الحركات، وبعدهما نوع من الأحرف، جرى الصوتُ بهما على نحو مُعيّن. وهو ما يُعرَف بالتَرقيق والتَغليظ. ومعنى التَرقيق جَعلُ الحرف نَحيفاً، والتَغليظ هو تَفخيم الحرف وتَعظيمه. ومن أمثلة تفخيم الراء نحو: قال رَبكم، رَزقكُم، فرَقنا، عرَفوا، مُحضراً،الحجَر. إذا كانت متحركة بالفتح أو قبلها فتحة أو ضَمّة وبعدها حرف مُستعمل.ومن أمثلتها مُرقّقة نحو: فِرعَون، مِرْية، قَدير، خَبير. وفي ذلك مذاهب للقراء واختيارات [34].

وتَفخيم اللام وتغليظُها للتعظيم في اسم الجلالة إذا كانت الحركة قبلَها فتحة أو ضمة نحو: اللهُ رَبّي، لا إله إلاّ الله، والعربُ غلّظتها إذا كان قبلها حرف إطباق وتابَعَها على ذلك بعضُ القراء نحو: ظلَموا، الصَلاة، طلّقتم، وذلك ليعمل اللسان في الإطباق عملاً واحداً ، فإذا سبقتْها كَسرة أو كُسرت أو سَكنت أو ضُمّت، وإن كان قبلَها حرف إطباق رُقّقت نحو: بالله، في الله، لاسم الله، يظلم، يُصلي لَظلوم، فصَّلنا [35].

والألف التي في موضع العين من الكلمة أو لامها يلحقُها تغيير في نُطقها في بعض اللغات. وقد أُخِذ بها في القراءة القُرآنية، لتصير قريبة من الياء، وذلك بشروط، منها: أن يكون أصل الألف الياء أو بدلاً من ياء أو ألفاً زائدة أو لأنها لا أصلَ لها في الواو أو أن أصلها الواو. فلمّا جُعلت قريبة من الياء وقبلَها كسرة مُقدَّرة وجب تغييرُها في اللفظ وذلك نحو: النار، النهار، البارئ، الجوار، عابد، الكافر، أنا آتيك، معزى، قُصارى، رَمى، سعى، يحيى، موسى، مجرى، لغرض بيان أصل الألف ومتابعة بعض لغات العرب [36].

والغنة صوت يُفهِم سماعُه نُطقَ الأحرف التي تُسبّبه وهي النون الساكنة والتنوين إذا لَقيت بعض الأحرف كالراء واللام في كلمتين: رجلٌ رَباني، سعدٌ له، مِنَ الحق، وتَظهر الغُنّة مع اللام على مَذهب أهل النحو. وتَبقى الغُنّة تخرُج من مَوضعها أي من الخياشيم إذا وَلِيَهما ميم: مِن حِراء، بعد ما، ويُدغمان كذلك في الواو والياء. ويظهرُ صوت الغُنّة في اللفظ بالمُشدّد.

وإذا لَقِي النون الساكنة والتنوين باءً في كلمة أو كلمتين فإنهما يقلبان ميماً نحو، عنبر، رجلٌ بعد آخر، أُنْبئهم، وتبقى الغنّة ظاهرة.

ويَليهما غيرُ حروف الحلق الستة وهي: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء، فتَخفَى، أي أنّ الحرفين النون الساكنة والتنوين يخفى كلٌ منهما عندَ الحروف الباقية في نفسه. وتَبقى الغُنّة تخرُج من الخياشيم نحو: كُنتم، الأُنثى، قولاً ثقيلاً، مِن ذَهب. وعدةُ هذه الأحرف خمسة عشرَ. وهذا الإخفاء عند أئمة القُرّاء حال بين الإظهار والإدغام. وإذا وَلِيَهما حروفُ الحَلْق أُظهِرا نحو:مِن إيمان، أنْهار، هارٍ جُرف، مِن حُكم [37].

ويكون الاستفهام بأحد حَرفيه:هل والهمزة، وبأسمائه: كيف وما ومن وأين ومتى وأنى وأيان. والاستفهام بالهمزة منفردة نحو [38]:

أغرّاءُ العَرادةُ أم بَهيمُ

ونحو [39]: أفَبَعد مَن وَلدَت نُسيبةُ أشتَكي

ويليها الاسم أو الفعل بحسب الغرض من الاستفهام . وتفيد في ذلك السؤال لطلب التعيين أو طلب التصديق. وربما أفادت معنى آخر يفيده نظم العبارة كالتعجب والاستنكار والتقرير وغيره.ويكون الصوت بها كالصوت بغيرها من حروف الكلمة.ويكون بالهمزة بعدها همزة أو همزتان نحو:"أ أنذَرتَهم" و"أ آمَنتُم له"و"أئن لنا لأجرا"[40] وهذا في لفظ الهمزة واجتماع همزتين بحسب مذاهب القراء واختيارهم فيه. فمنهم من يقرأه بهمزة واحدة على الخبر، ومنهم من يقرأه بهمزتين على الاستفهام . ولا بد للمستفهم من أن يلفظ بصوت الهمزتين همزة واحدة ويمدّ ليفهم بذلك أنهما همزتان [41]

ويؤكد بالنون الثقيلة والخفيفة في فعلي المضارع والأمر،لتفيد معنى زائداً في العبارة نحو قول تأبّط شرا[42]:

لَتقرعنّ عليَّ السنَّ منِ نَدَمٍ

وقول سَلَمة بن الخُرشُب [43]

ولا تَكْفُرَنّها لا فَلاحَ لِكافرِ

وقول عَبْد يَغوث بنِ وَقّاص [44]:

فَيا راكِباً إمّا عَرضْتَ فَبَلّغَنْ

وشواهد هذه الظاهرة كثيرة في النص العزيز نحو قوله جلّ وعز[45]،"وَلَتَجِدنّهم أحرصَ الناسِ على حياة".

ومثل هذه النون التنوين الذي يثبت لفظاً لا خَطّاً ، ويدُل على معنى الاسم المعرب المنصرف تمييزاً له من الاسم الممنوع من الصرف نحو: زيدٌ، لسعد، والاسم المعرفة فرقاً بينه وبين الاسم النكرة نحو: اذكر زُفَرَ و زُفَراً.

وكذلك اسم الفعل إذا أريد به التنكير نحو: مه، صه.

والأسماء: كل، بعض، أي، إذ، في نحو: لكلٍّ حظ، على بعضٍ، أيّاً رأيت، عندئذٍ، لتدُل على عِوض من محذوف هو المضاف إليه.وكذلك في صيغ منتهى الجمع نحو: عوادٍ، جوارٍ، معالٍ، دواءٍ. وهو عِوض من الحرف المحذوف. ويدخُل في جمع المؤنث نحو، حافظاتٍ ، ماهراتٍ، ليكون مُقابلَ النون في جمع المُذكر السالم: حافظون، ماهرون [46].

ويلحق هذا التنوين الرويّ المُطلق نحو قول جرير:[47].

أقلّي اللّوم عاذِلَ والعِتابَن

وقولِي إن أصَبتُ لَقد أصابَن

ونحو قول النابغة الذبياني:

لِمَا تَزَل بِرُكباننا وكأنْ قَدَن

وهو في هذه المواضع بدل من حرف الإطلاق الألف والواو والياء. ويكون في الفعل والحرف كما يكون في الاسم. ويُسمى في الرَوي المُتحرك تَنوينَ التَرنّم وفي الرَوي المقيد التنوين الغالي [48].

ومن خصائص نظم العربية ظواهر أخرى،تابعها الباحثون، ورصدَها العُلماء في ما قرّروا من سِمة هذه اللغة نحو الفَصْل والوَصْل والوقف والابتداء،مّما يتبيّن معه الكلام، وينكشف المعنى، ويأتلف اللفظ، ويصحّ الإعراب[49]

على أنّ هذا كلّه يتمّ في لفظ المُتحدّثين بالفصيحة. يأتون به وينطقونه، فيحدث مع كلّ صيغة أو بناء. وكلّ حرف زائد يسبق الكلمة، أو يلحقها،أو يدخل في صياغتها وبنائها فائدة معنوية، أرادها المُتكلّم، وطلبها المُتحدث وتُستفاد في الكلام بدون الصيغة والبناء أو اللفظ الزائد حرفاً أو أكثر.

ويتضح المراد بمراجعة ما تقدّم من كلام الباحث

على قيمة التنغيم إذا أخذَ به دارسو الأدب وأهل النقد الأدبي،ومَدى فائدته في الحكم على المعاني بدقة، وإيجابه على أهل اللغة مراعاته في تلاوة النص العزيز أنّهم سوف يجدون في ذلك تيسير فَهمه وتذوّق معانيه(50)

و كذلك ما نص عليه باحث آخر أن التنغيم أساس للتفريق بين الجمل، وأنه الفيصل في إدراك المعنى، والغرض البلاغي، بالرغم من خلوّ النص مثلا من لفظ الاستفهام. بل إن لفظ الاستفهام ربما وُجد دون أن يُفيد معنى الاستفهام . فيكشف بالتنغيم موسيقى الكلام عن هذا الجانب المهم. وهو ما وقف عليه بعض المُفسِّرين من تقديرهم للاستفهام باستعمالهم تَنغيم النطق وموسيقى الكلام دون الحاجة إلى تقدير حذف الاستفهام أو التعجب (51).

على أن أول الباحثين مُطالب بتوضيح كيف يُستفاد من التنغيم في دراسة الأدب ونقده، وبأن يفصل القول في كيفية مراعاة التنغيم في تلاوة النص العزيز، وبأن يشرح أمثلة توضح كيف ضاعت الفائدة في فهمه وتذوّقه بإهمال هذه الظاهرة منذ قرون كثيرة، بل إن على الباحثين كليهما أن يُحقّقا وجود ظاهرة التنغيم في الفصيحة، وهما يَعلمان أن العرب عُنيت أيّما عناية بدَرْس لُغتها وإتقان علومها. فلم تُماثلها أمّة من الأمم في ذلك لا في القديم ولا في الحديث، وذلك لأنها خُصّت بكتاب سماوي، هو مُعجزة دينها. وانتهى أغلب العلماء من أهل اللغة ومن غيرهم إلى حقائق ثابتة في ضَبْط نصّه، وروايته ، ورسمه.

وأن ثانيهما مُطالب بأن يعرض لِما أتى به من مذاهب هؤلاء المفسرين الذين وجدوا النص العزيز يتبين بالتنغيم وموسيقية الكلام في مواطن منه ممّا نص العلماء على حذف ما يُفيد الاستفهام أو التعجب.

وكلا الباحثين وبعضُ الدارسين ممّن ذهبوا مذهبَهما أن التنغيم تحتوي عليه العامية. فإن على هؤلاء أن يتحقّقوا من كون الظاهرة هي هي في كل عامية، أو أنها في كل عامية مختلفة عن غيرها، وما قيمته حينذاك .

بل إن الظاهرة اللغوية أية ظاهرة، مما تحتوي عليها اللغة، ويتكلم بها الناس، هي بعض أنظمتها الصوتية، فلا تضاف إليها إضافة، ولا يُقترح أن تُجعل في اللغة بعد أن لم تكن ! وهذا من بَديهيات العلم منهجاً ونتائج. ودعوة مَنْ دَعا إلى الانتفاع بالتنغيم في الفصيحة من قبيل تزجية الكلام واستهواء الظاهرة له في اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات التي مِن سِمتها أن تجري في كلام المتحدثين بها.

وحسبي بعد هذا أن أسوق نصّاً يُحقّق ما تقدّمَ من كلامي على أنّ في اللفظ الفصيح من الظواهر التي أتيت على كثير منها، يُفيد معاني لم تكن لتكون لولا تلك الألفاظ في نُطق المُتحدّث المُتكلّم أو القارئ لِنص من النصوص. قال ابن الجَزَري (52) " وروينا بسند صحيح عن أبي عثمان النهدي قال: "صلّى بنا ابن مسعود المغرب بـــ : قُل هو الله أحد. و والله لوددت أنّه قرأ بسورة البقرة من حُسن صوته وترتيله. قلت: وهذه سُنّة الله تبارك وتعالى فيمن يقرأ القرآن مُجوّداً مُصحّحاً كما أُنزل تلتذ الأسماع بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته، حتى يكاد أن يسلب العقول، ويأخذ بالألباب، سرّ مِن أسرار الله تعالى، يودعه من يشاء في خلقه. ولقد أدركنا من شيوخنا مَن لم يكن له حُسن صوت ولا معرفة بالألحان إلاّ أنّه كان جيّد الأداء، قيّماً باللفظ. فكان إذا قرأ أطرب السامع، وأخذ من القلوب بالمجامع،وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على الاستماع إليه،أمم من الخَواصّ والعوامّ، يشترك في ذلك مَن يعرف العربيّ ومَنْ لا يعرفه من سائر الأنام مع تركهم جماعات من ذوي

الأصوات الحسان، عارفين بالمقامات والألحان لخروجهم عن التجويد والإتقان".

ولذا فإنّ برجشتراسر ينفي الظاهرة في الفصيحة،بل يتعجّب من إغفال النحويين والمُقرئين القُدماء لها، وللضغط غير رمز أهل الأداء والتجويد إلى ما يُشبه النَغمة. بل إنّ ملاحظة الشعر وأوزانه تفيد أن الضغط لم يوجد في العربية، لكنّه موجود في اللهجات الدارجة أي العاميّة بدرجات مختلفة وفي مواضع من الكلمة متباينة (53).

وظاهرة التنغيم التي تقدّم ذكرها في أوّل البحث عند أصحابها ليست في ذات ألفاظ الكلام، وإنّما هي من اصطناع المُتكلّم نفسه. ومن ثمّ فهي قابلة للاختلاف بين شخص وآخر. وتعليق النحو على الظاهرة بهذه الصفة يُؤدّي إلى اختلاف في الفهم والتقدير. ثُمّ إنّ الظاهرة تقع في نطق المُتحدّث دون أن يكون لها أصل في اللفظ، فما بال الكلام المكتوب. كيف يجري طلبُها وتقديرُها والانتفاع بها في فهم الكلام !.

فأمّا في العربية الفصيحة بتراثها من الشعر والنثر ولا سيّما النصّ العزيز، و بما تضمّنته من خصائص النظم، ومذاهب اللغة والنحو والصرف فإنّ فيها ما يُغنيها ويُغني أهلَها عن ظاهرة يختلف المُتكلّمون باللغة في تكوينها وإسماعها، ولا تشمل كلّ أصناف الجُمل وأجزاء الكلام.

ثم إنّ الحديث عن الظاهرة اللغوية لا بُدّ أن يبدأ من معالم في الكلام تشتمل على عناصر اللغة، لا أن يُبدأ بالبحث في ظاهرة من عادة مُتكلّمين بلغات أخرى لاصطناعها في لغة اعتاد أهلها أن ينتفعوا بما فيها من خصائص لفظها وصيغها ونحوها وصرفها، وتكتفي بها أيَّ اكتفاء في الأداء عن مُرادها، ذلك لأنّ من البديهيّات أن كلّ حُكم أو مذهب في لغة من اللغات إنّما يَتمّ استنباطه والحديث عنه في ما هو موجود في ذات اللغة ومادّتها ، وما هو من عادة أهلها إذا تكلّموا بها واستعملوها.

الحواشي (*)

(1) مجمع اللغة العربية 51.

(2) علم اللغة العام 213

(3) J.D.O 'Connor p (1) ، A.S.Hon p (1)

(4) Peter P (112)

(5) J.D.O'Connor p(1-2,4-5)

(6) J.D.O'Connor p(4-5)

(7) J.D.O'Conor p(1-2)

(8) علم اللغة العام 244,212

(9) المسائل العسكريات 152

(10) التطور النحوي 71

(11) التطور النحوي 72

(12) المدخل إلى علم اللغة 103-107

(13) تاريخ آداب العرب 226/2

(14) تاريخ آداب العرب 226,249/2

(15) الرعاية لتجويد 64

(16) سورة البقرة,121 ,و النمل92 و المزمّل 4

(17) سورة و النجم21-22

(18) تاريخ آداب العرب 242/2

(19) سورة الشعراء41

(20) سورة يونس91

(21) مغني اللبيب368

(22) الخصائص156/3

(23) المسائل العسكريات152

(24) النشر214/1

(25) النشر340/1

(26) الخصائص124/3

(27) مغني اللبيب369 و شرح الكافية 307/2

(28) سورة الحاقة 25-29 والبقرة 259

(29) الخصائص 370/2

(30) الخصائص 337/3

(31) الكشف 122/1

(32) النشر 249/1 والكشف 240/1

(33) النشر 204/2

(34) النشر 86/2

(35) سورة آل عمران 160 والأعراف 157 والأنعام 109 والبقرة 67 والكشف 218/1 وانشر 107/2

(36) الكشف 168/1 والنشر 29/2

(37) الكشف 161/1 والنشر 21/2

(38) المُفضليّات 33

(39) المُفضليّات 53

(40) سورة البقرة 6 وطه 71 والشعراء 41

(41) النشر 358/1

(42) المُفضليّات 31

(43) المفضّليّات 37

(44) المُفضليّات 156

(45) سورة البقرة 96

(46) همع الهوامع 79/2

(47) معجم شواهد 35

(48) همع الهوامع 80/2

(49) أسرار البلاغة 7،3

(50) علم اللغة العام 213

(51) علم اللغة العام 245-246

(52) النشر 212/1

(53) التطور النحوي 72

المصادر والمراجع والحواشي

المصحف الشريف

1- أسرار البلاغة في علم البيان (للجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت 1978.

2- تاريخ آداب العرب، للرافعي مصطفى صادق، تصحيح محمد سعيد العريان ، الطبعة الثانية – القاهرة 1940.

3- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر جوتهلف، أخرجه وصححه الأستاذ رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي – الرياض 1982.

4- الخصائص / لابن جني عثمان بن جني أبو الفتح ، الطبعة الثانية، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر-بيروت– لبنان.

5- دلائل الإعجاز / للجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد / تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان 1978.

6- الرعاية لتجويد القراءة لفظ التلاوة لمكي بن أبي طال القيسي القيرواني ، تحقيق أحمد حسن فرحات، نشر دار عمار – الأردن 1984.

7- شرح الكافية في النحو / للرضي الاسترآباذي محمد بن الحسن / دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان (27) 307/2.

8- علم اللغة العام – الأصوات / الدكتور كمال محمد بشر/ الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر 1971.

9- الكشف عن وجوه القراءات / لمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني/ تحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان 1981.

10- مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1964، إبراهيم مدكور.

11- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث/ رمضان عبد التواب/ الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجي– القاهرة، ودار الرفاعي– الرياض 1982.

12- المسائل العسكريات/ للفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي، الطبعة الأولى، تحقيق إسماعيل عمايرة – منشورات الجامعة الأردنية 1981.

13- معجم شواهد النحو الشعرية / حنا جميل حداد، دار العلم للطباعة والنشر– الرياض 1982.

14- مغني اللبيب عن كلام الأعاريب لابن هشام عبد الله بن يوسف جمال الدين/ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

15- المفضليات للمفضل الضبي/ الطبعة الثالثة، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف– مصر 1964.

16- النشر في القراءات العشر/ لابن الجزري محمد بن محمد أبو الخير/ عني بتصحيحه وطبعه الشيخ محمد أحمد دهمان ، مطبعة التوفيق– دمشق 1345.

17- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان.

18- J.D. O' connor , Q.F. Arnold, Intonation of colloquial English, Second edition 1973.

19- Peter Roach , English phonetics and phonology ,1983

20- A.S. Honby, Oxford Advanced Learner's Dictionary, Oxford University press . 1979.